الكاتب المصرى

محرم ١٣٦٦ ديسمبر ١٩٤٦

السنة الثانية مجلد ٤ — عدد ١٥

ما وراء النهر (١)

وكان النهر يملى عليه حديثاً عجبا ، لأنه نهر عجيب بين الأنهار ، لا يعرف الناس له منبعاً ولا مصبًّا ، وإنما يرونه يسعى من الشرق إلى الغرب دون أن يستطيع أحد أن يقول : من أين يأتى ؟ ولا إلى أين يجرى ؟ وقد حاول المستكشفون أن يعرفوا من أمره ما عرفوا من أمر الأنهار الأخرى فى الأرض فلم يبلغوا من ذلك شيئاً ، ساروا شاطئه من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، فوجدوا مدناً وقرى ، وصحارى ليس فيها مدن ولا قرى ، ولكنهم انتهوا دائماً إلى غابات كثاف يضيع النهر بينها ، ولا سبيل إلى النفوذ منها ولا إلى تتبعه فيها . وكأنما خلقت هذه الغابات فى الشرق والغرب لتحجب النهر عن المستكشفين وتعمى آثاره على المتتبعين . وهى تتكاثف وتتكاثف ، ويدنو بعض أشجارها من بعض ، ويلتف بعض أشجارها ببعض ، ويكاد بعض أشجارها يركب بعضا ، حتى كأن النهر إنما ينبع من بيئة مظلمة أشد الإظلام ، ليصب فى بيئة أخرى ليست أقل منها إظلاماً ولا حلوكا

ولم يكن هذا هو الشئ الوحيد العجيب من أمر النهر ، وإنما كانت له خصلة أخرى ليست أقل من هذه الخصلة عجبا ؛ فقد عرف الناس أحد شاطئيه وهو هذا الذى تقوم عليه الربوة ، وتنبسط فيه السهول الخصبة المأهولة والصحارى الجدبة المقفرة من الشمال . فأما شاطئه الآخر مما يلى الجنوب فقد جهله الناس كما جهلوا منبع النهر ومصبه ، ولم يعرفوا منه إلا شيئين اثنين : أحدهما أن من وراء النهر وعلى أمد منه غير بعيد ، جبالا شاهقة ترتفع فى السماء ، وتبعد فى فى الارتفاع حتى لا يكاد البصر يبلغ قممها إلا فى كثير من الجهد والمشقة .

(١) الكاتب المصرى عدد ١٤ (نوفمبر ١٩٤٦) .

والثانى أن العبور إلى هذا الشاطئ مخوف يملأ القلوب هولا ورعباً؛ فقد تعارف الناس وتوارثوا منذ أقدم العصور، أن الذين يعبرون إليه لا يعودون، وهم من أجل ذلك لا يفكرون فى العبور إليه بل لا يتحدثون فى العبور إليه إلا فى كثير جدًّا من الحذر والتحفظ والاحتياط. ولعلهم لا يذكرونه بالتصريح وإنما يذكرونه بالإشارة والإيماء، بل نشأ عن هذا أيضاً أن الناس كرهوا الدنو الشديد من شاطئه الشمالى المعروف، وآثروا أن يقيموا مدنهم وقراهم على آماد بعيدة منه قد قدِّرت تقديراً. وما أكثر المدن والقرى التى اتخذت بينها وبين النهر حواجز كثافا من الشجر، كأنما كان الناس يكرهون حتى أن تبلغ أبصارهم شاطئ النهر الذى يليهم، لا نستثنى منهم إلا أهل هذه الربوة التى أشرفت على النهر وكادت تسعى إليه سعياً؛ فقد كانوا لا يخافون النهر ولا يرهبونه ولا يكادون يحفلون به، إما لأنهم كانوا من عنصر ممتاز لا يعرف الخوف ولا الرهب ولا يحفل بما يحفل به الناس، وإما لأنهم كانوا مشغولين عنه بحياتهم الناعمة وعيشهم الغض وتهالكهم على ما يتاح لهم من لذات، وإما لأنهم كانوا أذكى قلوبا وأنفذ بصائر من أن يقفوا عند ما تقف عنده العامة.

ومن يدرى! لعل كل هذه الخصال مجتمعة وخصالا أخرى غيرها كانت تشغلهم بأنفسهم وتصدهم عما يُقبل الناس عليه من ألوان التفكير.

وكان الشاعر وحده بين أهل القصر وما يتصل به من الأجنحة والدور هو الذى يُعْنَى بهذا النهر ويريد أن يستكشف أسراره ويتعمق دقائق أمره. ولكن للشعراء مذاهب فى البحث والاستقصاء لا تشبه مذاهب العلماء والفلاسفة إلا قليلا؛ فلم يكن شاعرنا يتتبع شاطئ النهر ليعرف منبعه أو مصبه، ولم يكن يحاول أن يعبر إلى شاطئه الآخر ليعرف ما وراء النهر، وإنما كان يكتفى حين يتاح له شئ من فراغ بأن يجلس فى هذا الجوسق مشرفاً على النهر محدِّقاً فيه مطيلا النظر إليه، يسأله ويلح فى السؤال، ويستمليه ويسجل ما يملى عليه.

وكان النهر بخيلا بأسراره، ضنيناً بدقائقه وحقائقه حتى على هذا الشاعر، مع أن المعروف أن الأنهار تحب التحدث إلى الشعراء؛ فكان الشاعر إذا سأل عن شئ من هذه الألغاز لم يرجع النهر عليه جوابا، وإنما يتحدث إليه عن أسرار أخرى، كانت الشمس تفضى بها إليه فى رسائلها الطوال التى كانت تقرؤها عليه منذ يسفر الصبح إلى أن يظلم الليل، والتى كانت النجوم تفضى بها إليه فى

رسائل خاطفة متقطعة ترسلها إليه حين يغشى الليل ، والتى كان القمر يرسل بها إليه ضوءه الهادئ المستقر بين حين وحين ، والتى كان النسيم يُهديها إليه فى الليل مرة وفى النهار مرة أخرى ، والتى كانت تعصف بها الريح أحياناً ويقصف بها الرعد أحيانا ، ويخفق بها البرق أحياناً أخرى . وربما أملى عليه بعض ما كانت تتحدث به أمواجه الهادئة المطمئنة من بعض النجوى .

وكان الشاعر يجد فى هذه الأحاديث متاعا ، ويسجل منها أطرافاً يحتفظ بأكثرها لنفسه ، وربما عرض أقلها على أهل القصر فرضوا حيناً وسخروا أحياناً .

وهو فى هذه الساعة مقبل على النهر يسأله ويتلقَّى أحاديثه ، بعينيه حينا إذ يرقب صفحته المضطربة فى هدوء ، وبأذنيه حيناً آخر إذ يسمع هذا الخرير الهادئ الذى يشبه نجوى المحبين . ولكن إقباله على النهر لا يتصل ؛ فهذا الخادم قد أقبل يحمل إليه القهوة التى طلبها إليه ، وهو لا يضع القهوة أمامه ثم ينصرف كما تعوّد أن يفعل فى كل يوم ، وإنما يقف صامتا أول الأمر ، ثم يقول : ما ينبغى أن يطول انتظار مولاى لك يا سيدى ، وإنما الخير إذا فرغت من قهوتك أن تستجيب لدعائه ؛ فقد أُنسيت أن أنبئك بأنه كلفنى أن أوجهك إليه متى أقبلت ، وما أرى إلا أنه يجهل مقدمك إلى الآن .

قال الشاعر : فدعه يجهل مقدمى حتى أسعى إليه بعد قليل .

قال الخادم : لا تبطىء يا سيدى ، فما أرى إلا أنه شديد الحاجة إلى لقائك ، وأكبر الظن أنه لم ينم من ليلته ، وأن أمراً ذا بال ينغص عليه حياته .

قال الشاعر : وما ذاك ؟

قال الخادم : لا أدرى ! ولكنى أعلم أنه أنفق آخر الليل فى مكتبه ذاهباً جائيا ، وأنه لم يصب من إفطاره إلا القهوة ، وأنه كان مكدوداً مجهوداً يتكلف القوة والجلد ، وأحسب أن ابنه الشاب هو مصدر هذا الهم وأصل هذا العناء ، فإن له كما تعلم خطوباً لا تنتهى .

قال الشاعر : حسبك فقد فهمت عنك ، أنبئ مولاك بأنى سأرقى إليه بعد قليل .

ووقف الخادم لحظة لا يقول شيئا ، ولكنه يدير فى نفسه ن هذا الرجل محمّق يؤثر حديث الأنهار على حديث الناس ، ثم نظر فإذا الشاعر قد أعرض عنه

وأقبل على النهر ينظر إليه والقلم فى يده كأنه يستمليه ، فلم ير بدًّا من أنه ينصرف متباطئا وفى نفسه كثير من الغيظ .

وليس من شك فى أن حديث النهر كان أحسن موقعا فى نفس الشاعر من حديث هذا الخادم الذى لم يكن ينبئه بشىء جديد . فهو يعلم أن لذلك الفتى المترف خطوبا لا تنقضى ، بعضها يحدث فى القصر نفسه ، وبعضها يحدث فيما يتصل به من الأجنحة والدور ، وبعضها يحدث فى القرية المقيمة فى أسفل الربوة ، وبعضها يتجاوز القصر والقرية إلى أماكن قريبة أو بعيدة ، وهو يعلم أن هذه الخطوب كثيراً ما تشغل صاحب القصر وتثير فى نفسه ألوانا مختلفة من الشعور .

فهو مرة راض عنها ومبتسم لها ، يرى أن ابنه فتى قد نيف على العشرين ومن حق الشباب أن يلهو ويعبث . وهو مرة ضيق بها منكر لها ، يرى أن للهو حدوداً لا ينبغى أن يعدوها الفتيان مهما يكن حظهم من نشاط الشباب ، وهو مرة ساخط أشد السخط ثائر أعنف الثورة ، يرى أن إبنه قد أسرف فى تعدى الحدود وتجاوز الممكن من لهو الشباب . وهو إذا بلغ هذا الطور من أطوار الغضب لم يؤثر نفسه بنتائجه وإنما يشيع هذه النتائج من حوله ، ويريد أهلَ القصر جميعاً على أن يثوروا ويسخطوا كما ثار وسخط ، ويُرهق امرأته من أمرها عسراً ، يحمِّلها أوزار هذا الفتى الذى لا يعرف القصد ، ولا يستطيع أن يقف نفسه عندما ينبغى أن تقف عنده من الحدود .

يردّ ذلك إلى أن أمه لم تحسن تربيته ، ولم تعرف كيف تنشئه ، ولم تستطع قط أن تمتنع عن تدليله وتيسير كل ما يعرض له من أمر عسير

ثم إن صاحب القصر لا يشق على نفسه وعلى أهله وذوى خاصتهِ وحدهم حين يسورط ابنه فى خطيئة من الخطايا ، وإنما هو معلن لثورته مشيع لسخطه ، يريد أن يُشرك الناس جميعاً والأشياء جميعاً فيما يجد . فهو يتجهم للزائرين ويلقاهم بوجه عابس بغيض . ويتحدث إليهم من طرف اللسان ؛ وما يزال يتكلف من ذلك فنونا وفنونا حتى يضطرهم إلى أن يسألوه عن أمره . فإذا فعلوا أنبأهم بهذه الأحداث الجسام التى يحدثها ابنه الطائش المفتون ، ومضى فى أحاديث لا آخر لهـا ، يجد فى ذلك تسرية عن نفسه ، ويجدون فيه إملالا لنفوسهم . ولـكن لا بد مما ليس منه بد ؛ فقد ينبغى أن نقبل الأصدقاء على علاتهم ليقبلونا على علاتنا ، وأن نأخذهم كما هم ليأخذونا كما نحن .

والشاعر بالطبع أشد الناس تعرضاً لهذا السيل الجارف من الأحاديث عن هفوات الفتى ونزواته وأحداثه التى يحدثها هنا وهناك، لمكانه القريب من صاحب القصر. فأى غرابة فى أن يفر بنفسه بين حين وحين من هذا الامتحان، ويخلو إلى نهره هذا العزيز فيسمع منه ويقول له! وأى غرابة فى أن يُعرض عن الخادم حين يريد أن يشق عليه بهذا الحديث فيقفه ثم يصرفه فى غير رقة ولا لين! أليس يكفيه مايسمع من السيد! ألم يبق إلا أن يشقيه الخدم أيضاً بهذه الأحاديث!

كانت أحاديث هذا الفتى إذن معادة مملولة بالقياس إليه على حين لم تكن أحاديث النهر معادة ولا مملولة، وإن كانت شاقة عسيرة دائماً. فقد كان النهر عصيًّا أبيا، يتحدث بما يريد هو لا بما يريده سائلوه. وكان فى تلك الساعة يقرأ على شاعرنا ألوانا من رسائل اختلسها من ريح الشمال، وكانت تحملها إلى ظلال قوم عبروا النهر ولم يعودوا، وكانت هذه الرسائل تصور ما يضطرم فى بعض القلوب من لهيب الحزن والأسى، وما يزهر فى بعضها الآخر من الذكريات، وما يساور بعض النفوس من يأس يحبب عبور النهر إلى الأحياء الآمنين، ومن حرص على الحياة يجعل عبور النهر مروِّعا مخيفاً.

وكان الشاعر يستمع لهذه الرسائل، ويستمتع بما فيها استماعا حزيناً شاحباً يلائم آمال الناس التى لا تنقضى وقدرتهم التى لا تمتد إلى أمد بعيد، كما يلائم حبهم للحياة وشوقهم إلى من فارقوا الحياة، وكما يلائم مايشيع فى قلوبهم من هذه القوة الضعيفة التى تعجز عن استبقاء الأشياء فتحتفظ بذكراها، ومن هذا الضعف القوى الذى يأبى أن يسلم الذكرى للنسيان، فيستبقيها وينميها ويتخذ منها وسائل لاستبقاء الحياة وتنمية ما فيها من نعيم قليل واحتمال ما فيها من بؤس كثير.

وقد هم الشاعر غير مرة أن يتقدم إلى النهر فى طى هذه الرسائل الإنسانية الممتعة المحزنة، ونشر رسائل أخرى ليس لها حظ من حزن ولها حظ عظيم من المتاع. فما أكثر ما كان النهر يقرأ عليه رسائل يسعى بها النسيم بين أزهار الشمال النضرة وأزهار الجنوب الذاوية الذابلة! وما أكثر ما كان النهر يقرأ عليه أنباء السماء تحملها أشعة النجوم أو ضوء القمر أو نور الشمس! بل ما أكثر ما كان الشاعر يستحب هذه النجوى التى تكون بين أمواج النهر متصلة

بأنباء الشرق ذلك الذى لم يصل إليه أحد ، حاملة هذه الأنباء إلى الغرب الذى لا يصل إليه أحد .

ولكن النهر كان يأبى دائما أن يقرأ على الشاعر أو يملى عليه شيئاً غير ما يريده هو . وكان الشاعر يجد فى هذا الإباء والامتناع ما يشقيه ويرضيه فى وقت واحد : يشقيه لأنه يبعده عما يحب ، ويرضيه لأنه يأتيه بما يلذه ويمتعه . وهل حياة الشعراء إلا مزاج من الشقاء والرضا ! ولو خيِّر الشاعر لاختار أن تتصل خلوته إلى النهر أطول وقت ممكن ، وأن يحتمل من شذوذه واستبداده ما شاء النهر أن يحتمل . ولكن الشاعر لم يكن مخيرا فى شئ . ومتى خيِّر الشعراء وأصحاب الفنون فى شئ ! إنما هم عبيد الطبيعة ، تفرض عليهم ما فيها من جمال وقبح ومن نعيم وبؤس ، وتخيل إليهم أو يخيلون هم إلى أنفسهم أنهم أحرار يستنبطون من الطبيعة أسرارها ويصوغونها فى صيغهم الفنية المألوفة شعرا أو رسما أو نحتا أو تصويرا أو غناء أو إيقاعاً .

وليس أدل على ذلك من أن شاعرنا قد كان عبداً لهذا النهر ، ولم يكن يستطيع حتى أن ينعم بهذا الرق ، وإنما كان يصرف عنه من وقت إلى وقت بطارئ يطرأ أو طارق يطرق . وليس كل الطوارئ يمكن أن يدفع فى يسر . وليس كل الطارقين يمكن أن يردَّ فى لين أو عنف . وقد استطاع الشاعر أن يرد الخادم حين همّ أن يصرفه عن النهر ، ولكن من له بأن يرد هذا الطارق الذى وضع يده فى رفق على كتفه ونشر فى الجو ضحكا عريضاً وهو يقول فى صوت متقطع : هأنتذا ! تخلو إلى نهرك لتقول له وتسمع منه . متى تنصرف عن أوهام الشعراء إلى ما يحيط بك من حقائق الحياة !

ويرفع الشاعر رأسه فيرى ابن صاحب القصر قد قام عن يمينه جميل المنظر رائع الطلعة معتدل القامة حاد النظرات ، قد امتلأ قوة ونشاطا ، وظهر على وجهه المشرق شئ من الجد الحزين حاول أن يخفيه بهذا الضحك العريض الذى كان ينشره من حوله فى كثير من التكلف .

ولست أخفى على القارئ أنى حائر أشد الحيرة فى أمر هذا الفتى ، كما أنى حائر أشد الحيرة فى أمر أهل الربوة جميعا ؛ فكلهم يلح علىّ فى أن أجد له اسما يتسمى به ويميزه بين غيره من الناس . وكلهم يلح علىّ فى أن الأشخاص لا يستكملون وجودهم إلا إذا عرفت أسماؤهم التى تحقق التمايز فيما بينهم وتخرجهم من هذا

الوجود الوهمى الذى يشبه العدم ، إلى وجود إلا يكن واقعا كل الوقوع فهو شئ بين بين ، أقرب إلى الواقع منه إلى الوهم ، وأدنى إلى الحقيقة منه إلى الخيال .

وكلهم يلح علىّ فى أن القدماء الذين عاشوا بين النهرين فى بعض عصور التاريخ لم يكونوا مخطئين حين كانوا يرون أن اسم الرجل هو أخطر أجزاء حياته ، وحين كان هذا الرأى يذهب بهم إلى شئ من الغلو فيعتقدون أن لأسمائهم إذا نقشت على الجدران حظها من الحياة وحقها فى القربان ؛ لأنها تظل حية بعد موت أصحابها ، أو لأنها تختصر وتستجمع ما يمكن أن يبقى من حياة أصحابها .

فللأسماء خطرها إذن ، ويوشك الرجل الذى ليس له اسم ألا يكون موجوداً . وهم من أجل ذلك يتصايحون بى من كل وجه مطالبين بأن أسميهم بأسمائهم ليستمتعوا بالوجود الصحيح .

وما ينبغى أن تسألنى كيف يتصايحون وهم لم يوجدوا بعد ؛ فإنهم يتصايحون على نحو خاص لا يسمعه أحد غيرى . ولو أنى منحتهم أسماءهم لكان من الممكن أن يتجاوز تصايحهم أذنىّ إلى أذنيك

وما أظنك تنكر أن الشخص الوحيد الذى استطعت أن تتصوره من أشخاص هذه القصة الذين مروا بك إلى الآن إنما هو شخص البستانى الذى سميته عثمان ، ولو لم أسمه لما تبينته . كما أنك لم تتبين إلى الآن شخص الشاعر على كثرة ما أضفت إليه من الصفات ، ولا شخص هذا الفتى الطارق على ما وصفت لك من منظره الجميل وطلعته الرائعة ووجهه المشرق الوضاء .

فهم لا يتجاوزون الإنصاف حين يطالبوننى بأن أسميهم بأسمائهم . ولكن ماذا أصنع وأنا أشد الناس ضيقاً بابتكار الأسماء ، لا يطاوعنى عقلى الضئيل ، ولا خيالى الكليل على هذا النحو من العبث . ثم أنا من جهة أخرى أكره أن أختار الأسماء ؛ لأنى أخشى أن أختار أسماء لها أشخاص قد اتخذوها لأنفسهم ، أو وسمهم بها آباؤهم ، وهذا أبغض الأشياء إلىّ ؛ فقد أنبأتك أن هذه القصة لم تقع أحداثها فى مصر ، ولا فى بلد متاخم أو مجاور لمصر ، كما يقول الناس فى هذه الأيام ، وإنما افترضت أن تكون أحداث القصة قد وقعت فى أسبانيا ، لا لأنها وقعت فى أسبانيا بالفعل ، فدون وقوعها فى أسبانيا خطوب وأهوال ، بل لأن أسبانيا هى الأرض التى تبنى فيها قصور الخيال والتى وجدت فيها تلك الربا التى ذكرها الشاعر الموشح حين طلب إلى السحب أن تجلل تيجانها بالحلى .

من أجل هذا كله أكره أن أسمى أهل هذه الربوه بأسمائهم ، وأخشى بنوع خاص أن يصرف بعض الناس هذه الأسماء وما يرون حولها من الحديث إلى أنفسهم ، فيظنوا أنى قد أردت بهم شرًّا وعرضت لهم من قريب أو من بعيد .

فإذا عاهدنى القراء على أن يؤمنوا أوثق الإيمان فيما بينهم وبين أنفسهم بأن هذه الربوة ليست قائمة فى مصر ولا فى البلاد المتاخمة أو المجاورة لها ، وبأن أهلها ليسوا مصريين ولا عرباً ولا شرقيين ، فقد أستطيع أن أجيب أشخاص القصة إلى ما يريدون ، وأهدى إلى كل واحد اسما يميزه ويمنحه حظه من الوجود الذى يطمع فيه ويطمح إليه ، وإن كان الوجود فى نفسه ليس شيئاً يستحق الطمع فيه أو الطموح إليه .

وليس ينبغى لك أن تظن أنى أمزح أو أداعب حين أغض من قيمه الوجود ؛ فلست أنا فى هذا مبتدئا ولا مبتكراً ، ولست فيه بدعا من الناس . وما أكثر الفلاسفة ، والشعراء الذين ينكرون قيمة الوجود ويرونه شرًّا أى شر ، ويودون لو أنهم لم يدفعوا إليه ، أو لو أنه لم يدفع إليهم .

وأنت تذكر بالطبع أن أبا العلاء تمنى غير مرة لو أن حواء ماتت قبل أن تمنح زوجها الولد أو لو أنها ماتت عقب ولادتها لابنها الأول . وأنت تذكر كذلك أن أبا العلاء ، ومن قبله فلاسفة كثيرون ، كان يرى النسل جناية لا ينبغى أن يجنيها الرجل العاقل الحازم ، وقد ظن بنفسه العقل والحزم ، فلم يقترف هذا الإثم ، ولم يتورط فى هذه الجناية .

ولو سمع لى أشخاص القصة وقبلوا نصحى لهم ومشورتى عليهم ، لما طمعوا فى الوجود ولما طمحوا إليه ، ولما أثقلوا علىّ بهذا الإلحاح فى أن تكونَ لهم أسماء يعرفون بها ، كما أن لغيرهم من الناس أسماء يعرفون بها . ولكن أرسطاطاليس قد أخطأ تعريف الإنسان حين قال إنه حيوان ناطق . ولو قد وفق إلى الصواب لقال إنه حيوان أحمق . وليس أدل على حمقه من طمعه فى الوجود وطموحه إليه وحبه للحياة .

وما دام هؤلاء الأشخاص قد استوفوا أعظم حظ ممكن من الحمق فأبوا إلا أن تكون لهم أسماء ، فلنُسَمّ الشاعر راغباً ، ولنسَمّ الفتى نعما ، فأما أبوه فلنرجئ تسميته إلى أن نلقاه فى مكتبه ذاك الذى اتخذه لنفسه سجنا منذ آخر الليل .

قال الفتى للشاعر حين سكت عنه الضحك : قد كنت أبحث عنك لأودِّعك ، فقد أزمعت السفر قبل أن يُقبل الليل ، وعزيز علىّ أن أحرم هذه الساعات الحلوة التى أخلو فيها إليك ، فأسمع ما تنشدنى من شعرك الرائع الجميل ، وما تقص علىّ من طرائف الأخبار ونوادرها .

قال الشاعر : وإنك لمسافر منذ اليوم ؟ وفيم هذا السفر الذى لم تنبئنا به ولم تهيئنا له ، ولم يقدِّم القصر بين يديه هذه المقدمات التى تعودت أن تسبق سفرك بأيام طوال ؟

قال نعيم وهو يتكلف الضحك ويخفى سخرية مرة : فإنها المأساة ياسيدى إنها المأساة ! لقد زلزلت الأرض وغضبت السماء ، وأظلمت الدنيا وفسد فى حياة القصر كل شئ .

قال الشاعر : وما ذاك .

قال نعيم : ذاك أن الشيوخ ينسون الشباب ، أو قل إنهم يستبقون الشباب لأنفسهم ، ويستأثرون بما يتيح لأصحابه من فرصة ، وما يبيح لهم من تجاوز الحدود . يرون ذلك سائغاً حين يتصل بأشخاصهم ، ويرونه حراماً حين يتصل بغيرهم من الناس .

قال الشاعر : فإنى لم أفهم عنك إلى الآن .

قال نعيم : ولكنك قد قدّرت من غير شك أن قد حدث فى القصر حدث ؛ فأنت لم تلق أبى فى حديقته هذه الغلباء ، وجنته الفيحاء كما تعودت أن تلقاه فى كل يوم قبل أن يرتفع الضحى ، متنقلا بين زهره وشجره ، ملحًّا على بستانيه بالأمر والنهى والسؤال والاستقصاء ، حتى إذا أجهد سعيه وإلحاحه وحركته وسكونه وتشددت أنت عليه فى أن يريح نفسه ويريح بستانيه ويريحك أنت من هذا العناء ، أقبلتما معاً إلى هذا الجوسق أو إلى غيره من جواسق الحديقة ، فأنفقتما سائر الضحى فيما تحبان من الحديث .

ولا شك فى أنك قد أنكرت تخلف أبى عن موعده ، واحتجابه عن أخص الناس به وأكرمهم عليه . ولا شك أنك قد سألت عن ذلك فعرفت من أنبائه أطرافاً .

قال الشاعر : لم أعرف إلا أنه محتجب فى مكتبه ، وأنه طلب أن أوجّه إليه متى أقبلت ، وقد غاظنى أن يحتجب الناس بين الجدران وتحت السقوف حين

يصفو الجو ويعذب النسيم ، ويدعونا الجمال إلى أن نستمتع به فى هذه الحديقة الرائعة النادرة ؛ فلم أسع إليه وإنما سعيت إلى النهر ، وكنت أريد أن أرقى إليه بعد ساعة تقصر أو تطول .

قال نعيم : فان استطعت أن ترقى إليـه الآن فافعل ؛ فهو فى حاجة إلى من يؤنس وحدته ويسلى عزلته ويبدد عنـه هموماً ثقالا . وما أظن إلا أن حاجته هذه ستتصل وتتصل، فسأسافر حين يُقبل الأصيل . ولـكنى إن أسافر وحدى اليوم فسيتبعنى بعد أيام قوم نبتْ بهم الدار ولم يبق لهم فيها أرب . إنها المأساة يا سيدى ، إنها المأساة ! وإن شئت فقل إنه الجنون واختـلاط العقل .

ثم سكت لحظة كان يعبث فى أثنائها بسلسلة ذهبية قد علق بها جماعة من المفاتيح ، ثم قدّم إلى الشاعر سيجارة وأشعل لنفسه سيجارة أخرى، ورمى النهر بنظرة فيها كثير من السخط والغضب ، وأرسل فى الجو تنفساً كان يريد أن يكون عميقاً بعيداً . ولـكن الفتى تجمل وتحفظ وأبى أن يخرج عن طوره، فاكتفى بتنفس بعيد بعض الشئ ، وجعل ينظر إلى الدخان وهو يتلوى تلويًا حفيفاً فى الهواء ، ثم قال فى صوت هادئ لايخلو من حنق وسخرية : ومع ذلك فقد كنت أرى أبى إلى الآن مستأنيا حلما .

قال الشاعر : أمفصح أنت لى آخر الأمر عما تريد، ومعرض أنت عن هذه الألغاز ؟

قال الفتى فى صوت صاخب : تريد أن أفصح لك ؟ فاعلم أن أبى قد طردنى من القصر . وإن لم يكفك هذا فاعلم أنه لم يطردنى وحدى وإنما طرد معى قوماً آخرين ، أفهمت ؟ أرضيت ؟

قال الشاعر : لم أفهم شيئاً ولم أرض عن شئ ، وإنما ازددت جهلا إلى جهل وحيرة إلى حيرة . فكيف اقصاك أبوك عن القصر ؟ وفيم كان هذا الإقصاء ؟ وكيف تلقيت أمره هذا على أنه جد ، مع أنك تعلم أنه يجدّ الآن ليهزل بعد ساعة ، وأنه لا يسخط إلا ليرضى ، وأن من العسير حين يستمع إليه خلطاؤه أن يتبينوا أهازل هو أم جاد ؟

قال الفتى : فإنى لا أعلم أن الناس يتمازحون بالطلاق .

فوجم الشاعر حين وقعت هذه الـكلمة فى نفسه ، كما وجم الفتى حين جرى بهذه الـكلمة لسانه ، وأغرق الرجلان فى صمت عميق كئيب طويل .

قال الشاعر بعد حين : فقد كانت لهذا كله أسباب خطيرة حقا .

قال نعيم : إلى أقصى غايات الخطورة ! سرت بعض سيرته حين كان فى سنى ، وما ينبغى أن أقول : سرتُ بعض سيرته فى سنه التى بلغها الآن ؛ فقد يجب أن يكون الأبناء حراصاً على الأدب وحسن الذوق ورعاية اللياقة حين يتحدثون عن الآباء ، ولكنى على كل حال قد سرت بعض سيرته حين كان فى سنى ، وأخطأنى التوفيق فلم يتح لى أن أخفى عليه كل شئ ، وما كاد يظهر على بعض ما فعلت حتى ثارت ثائرته ، فأنكر وسخط ، وأغرق فى الإنكار والسخط ، ثم ارتقى إلى الوعيد والنذير ، وأسرف على نفسه وعلى أهله فى ذلك . فقيل له حين تجاوز طوره : فإن هذا الفتى لم يفعل إلا ما تعوّد أترابه أن يفعلوا وما كنت تفعل أنت حين كنت بين العشرين والثلاثين . هنالك لم يضبط نفسه ولم يملك أمره ، فأرسل كلمته المنكرة ، ثم اندفع إلى شئ يشبه أن يكون جنونا فاقسم جهد أيمانه لا رآنى الليل فى قصره هذا ولا على ربوته هذه . فأنا مسافر إذا كان الأصيل ، وسيلحق بى غيرى بعد يومين أو بعد أيام ؛ فقد ينبغى أن أهيئ الدار لاستقبالهم فى مستقرنا الجديد .

وهمّ الشاعر أن يتكلم ، ولكن نعيما مضى فى حديثه فقال : إنك رفيق والدى منذ صباه وشريكه فى هزله وجده ، فهل تعلم أنه لقى من أبيه مثل ما ألقى منه ؟ وهل تعلم أنه لم يُقبل على بعض لذاته كما أُقبل أنا على لذاتى ؟ وهل تعلم أنه وفق دائما لأن يخفى عبثه كله على أبيه ؟ أمْ هل تعلم أنه كغيره من الناس لها أثناء شبابه وجدّ ، وأسرف على نفسه وعلى أسرته فى اللهو أحيانا ، فأنكروا عليه فى رفق ، ونصحوا له فى حب ، ووجهوه إلى الخير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وأكاد أقطع بأنهم لم يبلغوا مما أرادوا شيئاً .

قال الشاعر فى شئ من العنف : حسبك ! فما ينبغى أن تقضي على أبيك

قال نعيم : فهذه هى الجملة التى نسمعها دائما : ما ينبغى أن نقضى على آبائنا ، وما ينبغى أن نُخالف عن أمرهم ، وما ينبغى أن نسوءهم بقول أو فعل ! هذه خصال فرضتها علينا التربية وفرضتها علينا الأخلاق وفرضها علينا الدين . ولكن أواثق أنت بأن الحياة لم تفرض على الآباء شيئاً بالقياس إلى أبنائهم يلائم هذه الخصال التى فرضت على الأبناء بالقياس إليهم ؟

قال الشاعر : فدعنا من الفلسفة واستقصاء البحث عن أحكام التربية

والأخلاق والدين، وحدثني عن هفوتك هذه التي هفوتها فجرّت علينا كل هذا البلاء العظيم. أحق إذن ما يقال من أنه قد كانت لك في القرية خطوب؟ فما عسى أن تكون هذه الخطوب؟

قال نعيم: وما عسى أن تكون الخطوب التي تحدث لفتى فارغ مترف قد أقبل ينفق أشهراً بين أهله، فهو يغدو ويروح لا همَّ له إلا نفسه وإلا لذاته القريبة والبعيدة، وكل شيء من حوله يغريه باللهو ويدفعه إليه! وما أكثر ما يعبث الفتيان فلا تقف حركة الفلك ولا تغير الشمس مجراها في السماء! إنما هي فتاة من أهل القرية راقني منظرها وفتنني سحر لحظها، فصبت إليها نفسي، وانتهى الأمر بنا إلى غايته من الإثم. لم أتحرَّج أنا، ومتى تحرج السيد من اللهو باحدى إمائه! ولم تتحفظ هي! ومتى تحفظت الأمة فلم تستجب لأحد سادتها!

قال الشاعر مروَّعا: حسبك، حسبك! لستَ سيداً وليست أمة، وإنما امتزت عليها بثروتك ومكانك الاجتماعي، فأسرفت على نفسك وأسرفت عليها: غررتها فاغترت لك، وما كان لك أن تخدعها، وما كان لها أن تنخدع.

قال نعيم: ولكني خدعتها فانخدعت.

قال الشاعر: فأنت تجني الآن ثمرة هذا الظلم.

قال نعيم: فإني أود لو أعلم أنكم لاتظلمون أهل القرية، ولا تعنفون بهم، ولا تشتطون عليهم، ولا تظلمونهم ألواناً أخرى من الظلم ليست أقل من هذا الإثم الذي اقترفته خطراً، ولا أهون منه شأناً، ولا أضعف منه تأثيراً في حياتهم كلها. إنكم تستذلونهم وتستغلونهم، وتضطرونهم إلى البؤس وتفرضون عليهم الحرمان، تكلّفونهم ماتكلفونهم من ضروب الجهد والعناء، حتى إذا آتى جهدهم ثمره وانتهى عناؤهم إلى نتيجته، أخذتم خير ماتثمر الأرض على أيديهم فآثرتم به أنفسكم من دونهم واستمتعتم بنعيمه، وهم ينظرون إليكم من قريبهم تلك التي توشك أن تكون قطعة من الجحيم، وانتم لاترون بهذا بأساً، ولا تجدون في أنفسكم منه حرجا. ولو استطعتم أن تزدادوا ظلماً لهم وإثقالا عليهم لما تورعتم عن ذلك ولا زهدتم فيه، ولكنكم تعصرونهم حتى لاتتركوا فيهم معتصراً، ثم لاتجدون في أنفسكم إلا الرضا، ولا تحسون في قلوبكم إلا الطمأنينة. تُقبلون على هذا مصبحين، وتقبلون على هذا ممسين، وتنعمون بثمره هذا بين الصباح والمساء، وتنامون هادئين غير حافلين بهذا بين المساء والصباح.

وددت لو أعلم أن أهل القرية يجدون من اللذة فى استثمار الأرض لـكم ورفع ثمرات الأرض إليـكم ، واضطرارهم إلى الحرمان والبؤس ، مثل ما وجدت هذه الفتاة من النعيم والرضا حين خدعتها فانخدعت ، وحين غريتها فاستجابت للإغراء .

إنى ياسيدى لا أجحد أنى تجاوزت حدود الُخلق والدين ، واقترفت إثما من الحق علىّ أن أمحو آثاره ، ولـكنى فى سبيل هذا كله لم أظلم ضحيتى وحدها ، وإنما ظلمت معها نفسى ، واعترفت بهذا الظلم فأصلحت منه ما استطعت إصلاحه : قدّمت إلى هذه الفتاة كثيراً من الطرف وفنونا من الهدايا ، رفعتها إلى نفسى أو نزلت إليها ، عشنا حيناً من الدهر عيشة سواء لم أكن سيداً ولم تكن أمة ، وإنما كنت عاشقاً خليلا ، وكانت عاشقة خليلة . وأنت شاعر ياسيدى تعرف أن الحب يغير الأوضاع بين المحبين ، فيجعل السيد عبداً والعبد سيداً .

حدثنى عما تقدّمون من الخير والبر إلى أهل هذه القرية حين تسخـّرونهم فى غير رفق ولا لين ، وفى غير محبة ولا مودة ، وفى غير إنصاف ولا عدل لمنافعكم ، وحين تستأثرون من دونهم بثمرة ما يبذلون من جهد ، وما يحتملون من عناء .

إن أرض القرية لخصبة تنبت الغنى ، ولـكنها تنبت الغنى لـكم ، ولا تنبت لأهلها إلا فقراً ، وبؤساً ، وحرماناً . وإنـكم لتعلمون ذلك وُتقبلون عليه عن تعمد له ورغبة فيه ، لا تتحرّجون ولا يخطر لـكم أن تتحرجوا ؛ فإن لامكم فى ذلك لائم أو عابكم عليه عائب دعوتم بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ونظرتم إلى أنفسكم كأنـكم الضحايا ، وإلى لائميكم والعائبين عليكم كأنهم الأعـداء المغيرون . فما لـكم لا تُحِلُّون الحلال كله ولا تحرّمون الحرام كله ، وإنما تتبعون فيما تحلون وما تحرمون أهواءكم ومنافعكم لا ما أحلّ الله ولا ما حرّم !

ثم حدّثنى أواثق أنت بأنـكم لا تستحلون لأنفسكم حين تسنح لـكم الفرص ما تحرمون على غيركم ؟ أواثق أنت بأن أبى إنما يسخط علىّ غيرة على الحق وغضباً للحرمات ورعاية للخلق والدين ؟ أما أنا فمـا أرى أنه يسخط علىّ إلا ضنـًّا بى أن أنزل إلى مكانة دون مكانتى ، وخوفاً علىّ أن أتجاوز بهذا الحب طور المجون واللهو وأرتفع به إلى طور آخر يخشاه كل الخشية ويأباه أشد الإباء . ولو قد حدثته بأنى أريد أن أتخذ هذه الفتاة لى زوجا لجنّ جنونه وضل ضلاله . وثق بأنه لم يبلغ من الغضب ما بلغ إلا لأنه أشفق أن أتحدث

إليه هذا الحديث . وآية ذلك أنه لم يلمنى ولن يلومنى حين رآنى وحين يرانى أداعب وألاعب فتيات من أسر ممتازة كأسرتنا الممتازة . إنه يرانى لذلك كفؤا ، ويرى هذه الأسر موضعا لصهره ؛ فليس عليه بأس أن رآنى أقع فى شرك هذه الفتاة أو تلك ، ولعله يسعى ويدبر الأمر لأقع فى شرك هذه الفتاة أو تلك . أسرة ممتازة تُصْهِر إلى أسرة ممتازة ، ومال يجمع إلى مال ، وفتى كريم يقترن بفتاة كريمة . كل هذه أمور ترضون عنها وتسعون إليها ، تنعمون إن انتهت إلى الخير ، ولا تبتئسون إن انتهت إلى الشر من حق الشباب أن يمضى فى طريقه التى قسمت له ، ولكنهم تمايزوا بين الطرق التى قسمت للشباب ، فللأغنياء منهم طريق ، وللفقراء منهم طريق ، وللبائسين منهم طرق لا تحصى .

ثم أطرق الفتى إطراقة طويلة لم يكد الشاعر يتنبه إليها ؛ لأنه كان مغرقا فى الذهول منذ اندفع الفتى فى حديثه هذا الجرىء العنيف الطويل . ورفع الفتى رأسه بعد حين باسماً للشاعر وهو يقول : عُدْ إلى نفسك أو أعِدْ نفسك إليك ؛ فليس فى الأمر ما يدعو إلى هذا الوجوم . إن الأمر أيسر جدًّا مما تظن إنى خدعت خديجة ابنة الحذّاء فانخدعت ، ودعوتها فاستجابت . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لما سخط أبى ولا ثار ، ولكان من اليسير أن نرضى الفتاة ببعض الهدايا ، وأن نرضى أباها ببعض البر أو ببعض الابتسام ، وكان من اليسير أن أسافر فأطيل الغيبة فأنسى أنا وتنسى هى ، ويلتمس لها الزوج من طبقتها هنا أو هناك ، ويلقى الستار على مأساة تحدث الآلاف من أمثالها فى كل عام . ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، وإنما وقعت الفتاة من نفسى موقعاً خاصًّا ، واستقر حبها فى قلبى استقراراً مكينا ؛ فلست أرى من الاقتران بها بدًّا . ولم أتحدث بذلك إلى أبى ، ولكنه أحس ميلى إليه وتفكيرى فيه . نهانى عن هذه الفتاة فلم أنته ، وأغرانى بغيرها من بنات طبقتنا فلم يكن لإغرائه فى نفسى صدى ، ثم أنذر فلم يغن النذير ، وحذَّر فلم ينفع التحذير ، فقال كلمته التى قالها ، وفعل فعلته التى فعلها حين أخرجه الغضب عن طور العقلاء .

وقد قلت لك آنفا إنى كنت أبحث عنك لأودعك قبل الرحيل . وهذا حق ، ولكن هناك حقًّا آخر لم أقله لك ، وقد كنت أبحث عنك لأقوله لك أيضاً . وبعد فإنى سأسافر إذا دنا الأصيل ، وسيتبعنى قوم آخرون ، ولكن هناك قوما آخرين

قد سبقونى إلى السفر ، وسألقاهم فى العاصمة . ولن يمضى الأمر بينى وبينهم كما مضى إلى الآن ، ولكننى سأتخذ خديجة لى زوجا . فإن استطعت وإن أردت أن تلقى هذا النبأ الخطير إلى أبى فى رفق ، فافعل ، وإن عجزت أو أبيت فسيأتيه النبأ من طريق لا رفق فيها ولا لين .

وهمّ الشاعر أن يقف الفتى وأن يجادله فى بعض هذا الأمر ، وأن يرده إلى شىء من الرشد ، ولكن الفتى اندفع فى حديثه لايلوى على شىء قائلا : لاتتكلف مشقة ولا جهداً فى إقناعى بغير ما تمت عليه ؛ فإنك لن تبلغ من ذلك شيئاً . وإذا لم يكن بد من أن تبذل الجهد وتحتمل المشقة فافعل ذلك فى العناية بهذا الشيخ الذى سيعيش وحيداً فى قصره هذا الفخم الضخم بعد أن ينصرف عنه أهله ، وفى إعداده مترفقاً به لتلقِّى هذا النبأ الذى سينتهى إليه بعد أيام ما أظنها ستطول .

وهنا صمت الفتى لحظة ، ثم لم يلبث أن اندفع فى ضحك متصل ، ولكنه ضحك لايخلو من حزن ، ثم قال : وأكبر الظن أنك لن تحتمل كثيراً من العناء فى تعزية الشيخ عن هذه الخطوب ؛ فانه شيخ قد احتفظ بفضل من شباب . وما أشك فى أن الملل قد وجد إلى نفسه سبيلا ، وما أشك فى أنه يدير فى رأسه أمراً ذا بال ، وما أشك فى أن هذه الكلمة البغيضة التى انطلق بها لسانه حين تقدم الليل قد مدت له أسبابا وفتحت له أبواباً .

ثم وثب الفتى كأنما دفع إلى الوثوب دفعاً وانحنى على الشاعر فألقى على رأسه قبلة سريعة خاطفة ، ومضى أمامه لا يلتفت ولا يلوى على شىء .

وظل الشاعر واجماً لحظات ، قد أخذه شىء يشبه الدوار لكثرة ماسمع ولثقل ماسمع ، ثم ثابت نفسه إليه شيئاً فشيئاً ، وأراد أن يلقى نظرة إلى النهر ولكنه رأى نفسه ينهض متثاقلا ، ثم يرقى إلى القصر متباطئا وقد أنسى عادته الحبيبة إليه فلم ينحن على العصا ، ولم يمش على ثلاث .

طه حسين

[يتبع]